تأخرنا العلمي واسبابهُ

لجناب رفعتلو اسعد افندي داغر

تابع ما قبله

كتب التعليم * ويراد بها الكتب الموضوعة في اللغة العربيَّة تأليفًا او تصنيفًا لتعليم الطلبة مبادىء اللغة وتخريجهم في فنونها وتدريجهم الى الاحاطة بشواردها والاقتدار على مجاراة بلغاء كتبتها وشعرائها والكتب المترجمة عن اللغات الاجنبيَّة في اكثر العلوم الرياضيَّة والطبيعيَّة والتاريخيَّة وغيرها مما شعرنا حديثًا بضرورة شيوع تعليمهِ في مدارسنا فسمت الحاجة الى تحصيلهِ عن طريق الترجمة من لغات الاجانب لندرة الكتب العربيَّة الموضوعة في هذه الفنون او لعدم وجودها في اكثر هذه العلوم

فهذه على نوعيها تجدها قاصرة عن سدّ الحاجة الموضوعة لاجلها وغير وافية بالغرض المبنيَّة عليهِ اما الاولى — العربيَّة الوضع — فاكثرها على اختلاف مؤلفيها وتنوعها في المواضيع تعاب بعلو الطبقة في الكلام وتوعر المسلك في التعبير واطالة الشرح على غير طائل . فترى مؤلفيها منهالكين على ايداع الكلام اطباق التعقيد والخفاء . متجافين عن التعابير الآخذة بناصية البسط والجلاء راكبين في التراكيب متون الاستعارات والكنايات وهم معرضون عن الحقيقة غير متولين سوى جهة المجاز . جانحين في الاساليب عن سبل الاطناب والمساواة الى ما يبلغ فيهِ الايجاز حد الاعجاز وتصبح عندهُ كتبهم عبارة عن مستودع الاحاجي ومذخر المعميات والالغاز . حتَّى انهُ كثيرًا ما يعيي العلماء المتبحرين حل رموزها والوقوع على رقى ذخائرها وطلاسم كنوزها . فكيف يتسنَّى لهؤلاء الاحداث المبتدئين الحصول على مقاليدها ليحيّسوا حصاب تراكيبها ويذللوا رقاب اسانيدها . تلك امنية لا تحقق الاَّ في الحلم وقضيَّة جديرة بنظر اهل العلم

فمن منا لا يعزُّ عليهِ ويسوءهُ في عمليهِ ان يرى ولدهُ الذي كلفتهُ تربيتهُ ما ترخص عندهُ الحلى والجواهر وتهون لديهِ الاهوال والمخاطر جالسًا في احدى مدارسنا رازحًا تحت اثقال الاحكام والقوانين . وبين يديهِ بعض هذه الكتب المشار اليها يقلّب فيها وجوه التخرُّص والتخمين . ويرمي الظنون في ما عسى ان تكون تلك المغازي والمضامين . وكلما ضرب اخماسًا لاسداس . ازداد عليهِ الامر اعتياصًا وشدة مراس واتسعت في نظرهِ شقة العشوة وتعادي مسلك الالتباس . وهب ان مثالثة كانت حينئذٍ من الصرف الادغام او من

النحو المبتدأ . وهما من اشدّ قواعد هذين الفنين ابتذالاً واقربها منالاً . فعبثًا يكرر قول المؤلف " الادغام ادراج اول المثلين ساكنًا في الثاني متحركًا " وباطلاً يراجع قول الشارح "المبتدأ هو الاسم المجرد عن العوامل اللفظيّة للاسناد" فلن يرى لعين المعنى اثرًا ولا لمبتدإ المراد خبرًا . ولو بالغ في افراغ كنانة جهده وانضاء مطاياهُ . واسرف في استكداد ذهنهِ واجهاد قواهُ . ثم ان تلك المثالة التي تُسطَّر بمثل هذا التعقيد وتكون صفحة او تزيد . يطلب منهُ استظهارها حرفًا حرفًا . وتلاوتها على مسمع المعلم بسرعة تفوق السهم نبلاً والبرق خطفًا . وكيف يتمكن من استظهار ما لم يفقه معناهُ الاّ اذا فتح عليهِ الله بما غلق عن سواه وان قصّر في القيام بهذا المطلب الكؤود طوّقهُ السوط على الاثر . وكبّتهُ الكف اقسى من حجر . وشاهدنا في الادغام والمبتدأ ذرة من رمال . وقطرة من عارض هطّال . وما نراهُ في الصرف والنحو من معجز الدرك يزداد خطبهُ في المعاني والبيان ويتعاظم امرهُ في البديع والعروض والقوافي ويبلغ اشدهُ في علم المنطق حيث تُضرب على عرائس المعنى كلل الاعجاز . ولا يعود لادراك حقيقة المراد من مجاز

فمن منا يسلم بتعريض صغارهِ لركوب هذه الاهوال . وحمل هذه الاثقال . التي تنوء بها ظهور اشد الرجال وهل يُستغرَب بعد هذا خروجهم من المدرسة كارهين لها داعين عليها . يفضلون الموت في احضان والديهم على الرجوع اليها . وهنا يقول قائل : ان كانت الكتب العربيّة على ما ذكرت فالتحصيل منها اشبه بالمستحيل والتخرّج بها ما اليهِ من سبيل . ولكن هذا مردود بمن كان مرجعهم في الدرس اليها ومعولهم في التحصيل عليها . ولا يزال ذلك شأن كل من يروم التضلع من فنون اللغة وآدابها والتعمق في معرفة اصولها وفروعها وفصولها وابوابها . ويقول آخر : ان الحكم على هذه الكتب بالنقص والعيب يقضي باغفالها وطرحها في زوايا النسيان . وتؤول الى فقدها وضياعها على تراخي الايام وتمادي الازمان . وهي الحكَم في تصحيح المنقول والمعتمد في تمحيص الآراء والسند في الاستشارة والاستشهاد . ويقول غيرهما : ان صعوبة فهمها وغموض معانيها وغرابة مناحي التعبير فيها لا تقضي عليها بالطرح والاهمال ولا تُذكر في جنب ما لها من المزايا والافضال . لان التخرج بها يشرب عقول الطلبة حب تحدّي العرب في الانشاء بابدع اسلوب وافضل معنى ويكسبهم ملكة التعبير عن المراد باللغة الفصحى

فاجيب : ان اعتراضات كهذه على كثرة المتمسكين بها لا تُذهب شيئًا من قوة الحكم على كتبنا العربيّة بعدم صلاحيتها لان تكون كتبًا مدرسيّة توضع بين ايدي الطلبة لتلقّي

علوم اللغة وفنونها بل بالعكس تزيد قولنا تأييدًا وحكمنا تثبيتًا وبيان ذلك ان الاعتراض بذكر الذين تخرجوا بها وتأدبوا عليها يردُّ بان اولئك ليسوا شاهدًا يقاس عليهِ لانهم افراد قلائل . يعدون بالانامل . وليس المزهرة ربيعًا ناضرًا . ولا القطرة بحرًا ذاخرًا . وقبلما تعبث بك نشأة السرور برؤية اولئك الافراد . المتفرقين بين الملايين من اهل البلاد . اسال رعاك الله عن رفقائهم الذين صحبوهم في الدخول الى المدارس وكانوا يُعدون بالمئات والالوف . فخرجوا عطل الاجياد من حلى علوم اللغة يكادون لا يحكمون النطق بالحروف . ثم ان اولئك الذين تعدهم نوابغ الفضل ومصابيح الذكاء ونبالغي علومهم ومعارفهم قد انقطعوا للدرس والمطالعة . وزهدوا في التفتيش والمراجعة . لا يذخرون وسعًا ولا يألون جهدًا وهم يغوصون في قعار اللغة ويجدون . ويستكدون الاذهان ويجهدون . حتى مضى عليهم من السنين . مدة لا تنقص عن العشرين . فهل كان ما حصلوهُ من العلم والعرفان . يوازي ما كابدوهُ من الاتعاب واضاعوهُ من الزمان . وهل في وسع كل فردٍ من اولادنا مجاراتهم في هذا السبيل . وتحديهم في الانقطاع للتحصيل . وتحمل التعب الجزيل . كل هذا الوقت الطويل . اما الاشفاق على فقد هذه الكتب اذا أُبطل استعمالها فهو في غير محلهِ بل يكفي للمحافظة عليها ان تكون مذخورة في صدر مكتبة كل معلم يعول عند اللزوم عليها . ويرجع حين ما تمس الحاجة اليها . ناهيك ان الكتب التي نروم استبدالها بها لا نريد ان توضع دونها في الصحة والاحاطة بل تكون نظيرها في امثال ذلك وانما تمتاز عنها في البسط والايضاح والاختصار ورفع التعقيد والابهام . وجعل المراد على طرف الثمام . وان يراعى فيها من كل وجهٍ مقتضى الحال وقوفًا عند حد البلاغة جلاء للمبهم . واعرابًا للمعجم . وان يحتى في تاليفها المنحى الافرنجي بحيث تسبق القواعد بالنموذجات والتماهيد . والايضاحات التي لا تبقي حاجة في نفس المستزيد . وتعقب بالامثلة والتمارين . التي تعين على ابلاغها لذهن الطالب عن طريق الرسوخ وتكفيهِ مؤونة التكهن والتخمين

اما الاعتراض الثالث بان كتبنا الحاضرة على صعوبتها اعزُّ من ان نهجر لان فيها من فوائد اكتساب ملكة التعبير باللغة الفصحى ما يشفع عند الطلبة في صعوبة مأخذها وضيقة مخارجها فيُدفع بان هذه الفوائد — على فرض تحققها — لا توازي تلك الاتعاب وما كنا لنكلف اولادنا في تحصيلها عرق القربة وشق النفس . فندفع ذاكراتهم الى مهاوي الكلال ونقذف خواطرهم عن حالق الفنوط واليأس . واذا سلموا من هذه المخاطر لم

يخرجوا في حد المثل العامي عن أكلة الخرنوب — قنطار خشب على درهم دبس . ثم ان هذه الكتب لم توضع لاكساب ملكة التعبير باللغة الفصحى بل لتعليم ما هو دون ذلك وان صحّ الادعاء بالمامها بمثل هذه الابحاث فلا باس من استعانة الاساتذة بها عند ما يأخذون في تخريج الطلبة في هذه المناحي والاساليب وتعوزهم الكتب الموضوعة في هذا الفن الجليل

فاذاً كل من يهمه الرفق بالاولاد . ويعرف ان قواهم ليست من حديد ولا عقولهم من جماد . ويدرك ضرورة تقصير مدتهم المدرسيّة تعجيلاً لمساعدة خروجهم على التأهب والاستعداد . لمباشرة خدمة الوطن والقيام بمصلحة البلاد . لا يسعه الاّ الحكم بان هذه الكتب في مقدمة آفات نجاح اولادنا لان التخرّج بها لشدة ما يتطلبه من استكداد الذهن مضرٌّ بالعقل ومؤذٍ للجسد . ومطيل شقة المدة المدرسيّة الى حدٍ يفرغ عندهُ الصبر والجلد . ويضطرُّ التلميذ على هجر المدرسة اللابد . والخروج منها وما عندهُ من العلم لا سبد ولا لبد

اما النوع الثاني من كتبنا المدرسيّة (كتب الترجمة) فبيّن أنّها والكتب العربيّة الوضع على طرفي نقيض فما أفرط به في تلك فُرّط به في هذه وقد قيل " حب التناهي غلط خير الامور الوسط " فقد قلنا ان تلك لا تصلح للتعليم لانها في طبقة من الكلام وغاية من الاطالة تجعل ادراك المراد من قواعدها فوق طور التلامذة ونقول الآن ان هذه — كتب الترجمة — لا تصلح للتعليم لقصور باع مترجميها في الانشاء وعدم امتلاكهم ناصية التعبير باللسان العربي الفصيح ونهالكهم في اماكن كثيرة منها على سوق المعاني في تراكيب ليست من العربية في شيء حتّى جاءت كتبهم آيةً في سخافة التعابير وركاكة المعاني وسفالة طبقة الكلام وانك لترى قصورهم في معظم الظهور حيث تفضح قلة المادة عوارهم وتعوزهم القوالب العربيّة والالفاظ الفصيحة والمناحي الفصيحة فيتطلبونها في زوايا الخواطر ومخابىء الاذهان فلا يجدون منها شيئاً فيعمدون الى التراكيب السقيمة المستهجنة والتعابير السخيفة المبذّرة والالفاظ العاميّة والكلمات الاعجميّة وكثيراً ما يحملهم الغرور على ستر هذا القصور بالتخذلق والتوهيم فيعثرون الهدف والتقعّر ويكثرون التعمّل والتكلف والتطنطة بالفاظ غريبة وكلمات عويصة يظنهم بها الانفاق فيأتون الخرق باستعمالها بدون ان يكون لها على المعنى اقل انطباق . وهم في ذلك يخلطون الخرز بالذهب . وينظمون اللآلئ في سمط الخشب . فضلاً عن اغلاطهم الصرفيّة وزهفاتهم النحويّة . فان كنّا نأبى تخريج اولادنا بتلك الكتب — العربيّة الوضع — بناء على ما وجدناه فيها من المحاذير . فبالاولى جداً نأباهُ

بهذه (الكتب المترجمة) الفاسدة الاساليب والركيكة التعابير لان عدم استقامة تراكيبها يقضي بصعوبة استخراج المعنى واحتوائها سقط الكلام يفسد ذوق الطلبة ويزيغ بهم عن محجة الصواب في صناعة الكتابة والانشاء. وتصبح بعد ذلك معالجتهم بالكتب الفصيحة رقمًا على صفحات الماء.

هذا وما لا يبرح من الاذهان أن حكمنا على هذين النوعين (من الكتب) يجب ان يعتبر حكمًا اجماليًا لا يتناول ما جاء منها خاليًا من العيوب ومرادنا بهذا الاستدراك وقاية النفس من الرمي بالتحامل وغمط فضل من ليس لكتبهم في هذا البحث دخل. وهم بالشكر والثناء افضل اهل. ولاسقاط حجة من يرد علينا بها محمولاً بسابق وهم او بسوء فهم. لانها في حكم النادر والنادر لا يبنى عليه حكم. فاذا نظرنا الى كتب كلٍّ من هذين النوعين على حدةٍ وجدنا فيها ما تقدم بيانهُ من النقص القاضي عليها بعدم الصلاحية لان تكون كتبًا تعليميةً ما لم ينظر في شانها فيصلح منها ما كان قابلاً للاصلاح ويستبدَل الباقي بما يجيء مستوفيًا شروط تأليف – او ترجمة – الكتب المقصود بها تدريج الطلبة في معارج العلوم والفنون وتخريجهم في مناهج التقدم والفلاح ستاتي البقيّة

الدكتور شليمن

ولد الدكتور شليمن في مدينة نوبكو من اعمال جرمانيا وكان ابوهُ قسيسًا فقيرًا ولكنهُ كان على شيء من العلم وكان لهُ المام بالتواريخ القديمة فلما بلغ ابنهُ السنة السابعة من عمرهِ اهدى اليهِ نسخة من التاريخ العام الذي ألفهُ لدوغ جرر. وفي هذا التاريخ صورة مدينة تروادة والنار تكتنفها فأثّرت رؤيتها في نفسهِ وقال لابيهِ انها كانت هذه المدينة قد وُجدت حقيقة فلا بدَّ من بقاء آثارها الى يومنا هذا تحت غبار الادهار. وهو قول قلَّما يُصدَّق ان ولدًا في السابعة يقولهُ ولكن الدكتور شليمن نفسهُ ذكرهُ في تاريخ حياتهِ ولعلَّهُ قال قولاً يقرب منهُ. ومهما يكن من الامر فلا شبهة في انهُ رغب من صباهُ في اكتشاف آثار هذه المدينة وكانت الرغبة تتزايد فيهِ الى ان حملتهُ على ترك اعمالهِ كلها والتفرُّغ الى البحث عن هذه الآثار كما سيجيء

وكان ابوهُ عازمًا ان يعلمهُ في افضل المدارس وينفق على تعليمهِ بقدر طاقتهِ ولكنهُ